ندوة علمية موسومة

الخلفية الكلامية للبلاغة العربية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية

يوم: الأربعاء 02 جمادى الثانية 1446هـ الموافق:04 ديسمبر 2024 م

عنوان :البلاغة العربية و علم الكلام

تفعيل القراءة النصية - من الأدبية إلى الثقافية

Arabic rhetoric and theology
Activating textual reading - from literary to cultural

كريم خلدون : أستاذ محاضر (أ) بجامعة الأمير عبد القادر

ملخص : باللغة العربية

يبدو أننـــا في هذا العصر نشهـــد عودة قوية (**تداخل الآليات الكلامية مع الآليات البلاغية في التحليلي**) لتقارب متميز بين علم البلاغة العربية و علم الكلام الحديث أضفـى نوعا من التجديد المنهجي و الموضوعاتي و المقاصـدي ... على اهتمامات البحث العلمي , كمـــا عمل على توسـيع مجال الرؤية المقارباتية المنهجية لعلم البلاغة ليتجاوز بذلك عالم الأدبية و النصية اللغوية إلى عوالم حياتية مختلفة نفسية و اجتماعية و سياسية و تاريخية و ثقافية و حتى حضارية ... لغوية و غير لغويـــة – سيميائية .. تُستعمل فيها البلاغة ممزوجـــة بعلم الكلام في إنتاج نماذج تحليلية / تفسـيرية فاعلة لها قدرة تفكيكية و قرائية عالية لا تقف عند تخوم بنية (الأنا) بل تتخـطاها إلى بنية (الآخر) .. بغيـة تخريج نسق معرفي علمي دقيق إنساني له من الكفاءة العلمية و المعرفية على تحديد التحديات بدقة و محاورتها ثم اسـتيعابها و تسـخيرها في خدمة المصـلحة الذاتية و الإنسانية في الآن نفسيه ..

الكلمات المفتاحية : البلاغة – علم الكلام – النصية – الأدبية – الثقافية

Summary in English

It seems that in this era we are witnessing a strong return (The intersection of verbal mechanisms with rhetorical mechanisms in analysis) to a distinct rapprochement between the science of Arabic

rhetoric and the science of modern theology, which has added a kind of methodological, thematic, and intentional renewal... to the interests of scientific research. It has also expanded the field of vision of the methodological approaches to the science of rhetoric, so that it goes beyond the world of literature and Linguistic textuality refers to different life worlds, psychological, social, political, historical, cultural, and even civilizational... Linguistic and non-linguistic - semiotic... in which rhetoric is used mixed with the science of speech in producing effective analytical/interpretive models that have a high deconstructive and reading ability that do not stop at the borders of the structure of the (ego), but rather go beyond it to the structure of the (other)... in order to produce an accurate scientific system of knowledge. A humanitarian who has the scientific and cognitive competence to accurately identify challenges, negotiate with them, then comprehend them and harness them in the service of self-interest and humanity at the same time psychologically.
Keywords: rhetoric - theology - textuality - literary - cultural

مقدمة :

يعالج هذا الموضـوع و يتحدث عن إشـكالية المجال الذي كانت البلاغة العربية منذ زمن طويل تتحرك فيـــه و تحصـــر مقارباتها و منظوراتها الدراسية في حدوده إلى درجـــة يحس فيها المتلقي العارف لابسمولوجيا الطرح البلاغي العربي القديم أنها بلاغـــة حريصة على عدم الخروج بصناعاتها و آلياتها و إجراءاتها خـــارج فضاء الأدبيـــة , و أن هذه الأخيرة هي عالمها الطبيعي و الحيوي في الآن ذاته , إلا أن التقارب بين البلاغة العربية و علم الكلام إلى حد التفاعل في مراحل تاريخية معينة اســتطاع أن ينقل الرؤية البلاغية العلمية إلى مجالات أوسع نوعا ما و يستفيد علم الكلام هو نفسه من نتائجها و ثمراتها و أدواتها و مناهجها .. في مقاربة مادته العلمية و ظواهرها الواقعية .. إلا أن هذا التواصل لم يدم طويلا بين علم البلاغة العربية و علم الكلام ليتحول في سـياق ظروف سـياسـية و ثقافية ...إلى انفصـال ترك آثارا بليغة في التطور العلمي و المعرفي النوعي على الحقلين البلاغي و الكلامي ...

لكن يبدو أننـا في هذا العصر نشهـد عودة قوية (**تداخل الآليات الكلامية مع الآليات البلاغية في التحليلي**) لتقارب متميز بين علم البلاغة العربية و علم الكلام الحديث (.. فإن الشركة بينهما واقعة و الأدلة فيهما متضـارعة / *أبو حيان التوحيدي*) أضـفـــــى نوعا من التجديد المنهجي و الموضـوعاتي و المقاصـدي ... على اهتمامات البحث العلمي , كمـا عمل على توسيع مجال الرؤية المقارباتية المنهجية لعلم البلاغة ليتجاوز بذلك عالم الأدبية و النصية اللغوية إلى عوالم حياتية مختلفة نفسية و اجتماعية و سياسية و تاريخية و ثقافية و حتى حضارية ... لغوية و غير لغويـــة – سيميائية .. تُستعمل فيها البلاغة ممزوجـــة بعلم الكلام في إنتاج نماذج تحليلية / تفسـيرية فاعلة لها قدرة تفكيكية و قرائية عالية لا تقف عند تخوم بنية (الأنا) بل تتخـــطاها إلى بنية (الآخر) .. بغيـــة تخريج نسق معرفي علمي دقيق إنساني له من

الكفاءة العلمية و المعرفية على تحديد التحديات بدقة و محاورتها ثم استيعابها و تسخيرها في خدمة المصلحة الذاتية و الإنسانية في الآن نفسيه ..

فحوى العلاقة بين المعرفي (الكلامي) و اللساني (البلاغي) :

التفكير اللساني الحديث مع شدة تميزه بالموضوعية و الشمولية و الاتساق و الاقتصاد يملك من الصرامة العلمية المنهجية في مقاربة الظواهر موضوع البحث اللغوي الحديث ما جعله يستطيع أن يقف على نتائج علمية باهرة في المستويين التنظيري و التطبيقي , و قد صاحب ذلك نتاج وفير من الحقائق العلمية اللغوية و المعطيات المعرفية صوتية و صرفية و معجمية و تركيبية و دلالية و تداولية .. إلخ أهلت الحركة الفكرية اللسانية الحديثة من أن ترقى إلى مستوى العلوم الدقيقة .. و تحجز لها مكانا و مكانة بين المجموعات العلمية الرائد و القائدة للتحولات التكنولوجية و الثقافية و الاقتصادية ... المعاصرة .. و لهذا بات من (.. المعلوم أن العلمين المهيمنين على الفكر الإنساني في النصف الأخير من القرن العشرين هما : الرياضيات و اللسانيات , لذلك نجد أن هذه الأخيرة قد أخذت من الأولى نماذجها و طابعها العلمي , و أخذت الرياضيات من اللسانيات وظيفتها باعتبار أن الرياضيات صيرورة تواصلية . و تأسس بناء على هذا علم يبين هذا التواطؤ بين الاختصاصين هو اللسانيات الرياضية . و لهذا فإن الفكر الإنساني في المرحلة الحالية يطمح إلى توحيد العلوم – و هو الدور الذي تحاول اللسانيات أن تقوم به – للبحث في الكليات ...)[1] .. و من أهم هذه الحقائق التي أنتجه البحث الفكري اللساني الحديث حقيقة أن (.. كل لغة تلتقط و تنظم التجربة الخارجية بوسائلها الخاصة , و أن المعلومات اللسانية تنفذ إلى ذهن ضمن المعلومات غير اللسانية ...لتؤثر في السلوك غير الكلامي , كما ان المعلومات غير اللسانية قد تؤثر في السلوك الكلامي . و هذا الاتصال بين المعلومات اللسانية و غير اللسانية المدركة يدعونا إلى افتراض وجود مستوى واحد للتمثيل الذهني تُعالج فيه جميع أنواع المعلومات لنصل إلى مجموعة من المعارف لا يفرق فيها بين اللساني و غير اللساني , لنسم هذا المستوى مستوى البنية التصورية ...) [2] . و توضيح فحوى هذا الطرح العلمي المكثف مصحوبا بإضافات محتشمة تخدم السياق العام لهذه الورقة ... نفضله رسما بيانيا على الشاكلة الآتية :

---

[1] - حسين خمري : نظرية النص – من بنية المعنى إلى سيميائية الدال , منشورات الاختلاف , ط1 : 2007 م , ص : 46 – 47 .

[2] - عبد القادر الفاسي الفهري : المعجم العربي بين التصوري و الوظيفي , في المعجمية العربية المعاصرة .دار الغرب الإسلامي , ج2 ,ط1 : 1987 م , ص : 467 .

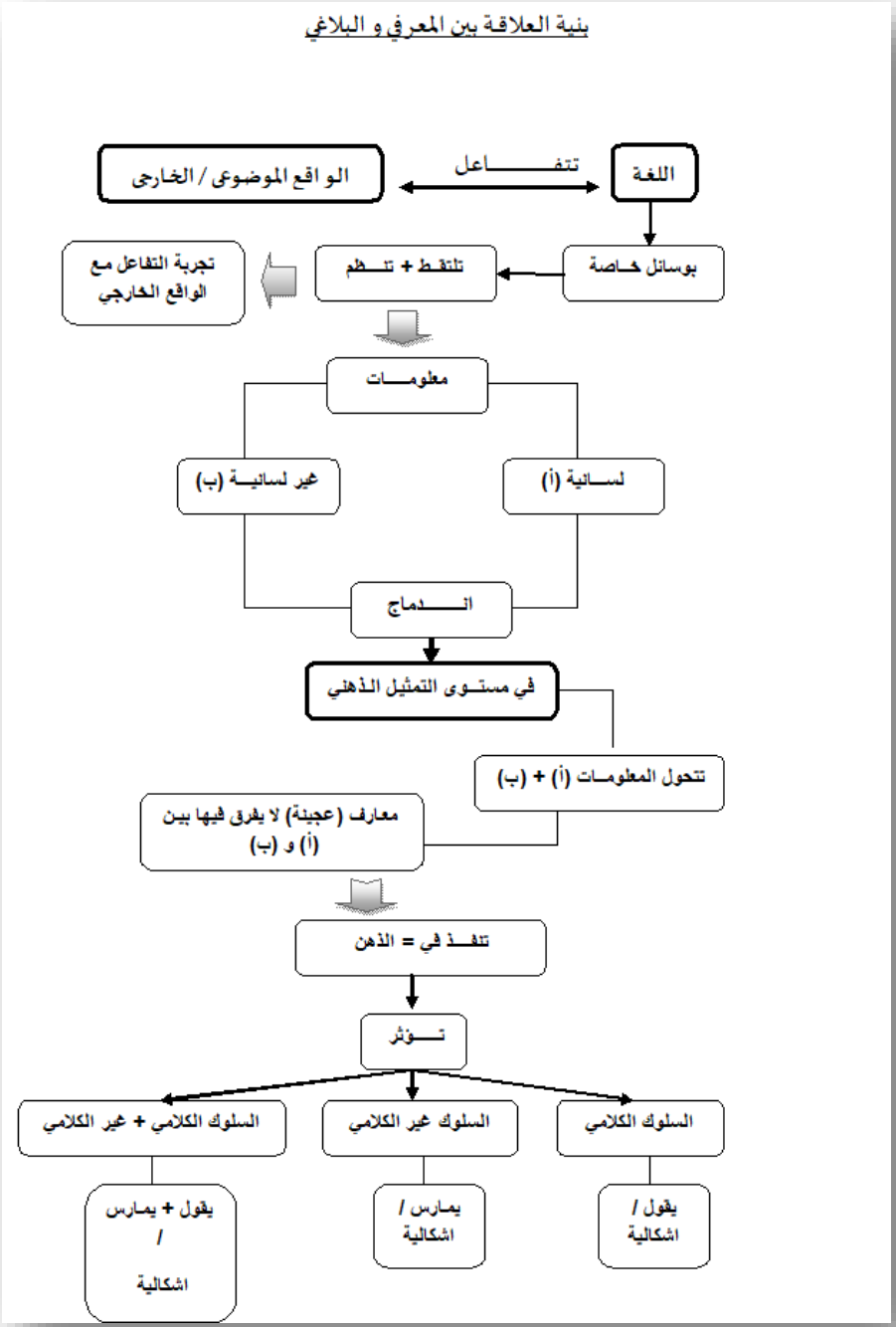

منطلق مهم :

حتى لا نتعرض لتعريف علم البلاغة و علم الكلام لغة و اصـطلاحا مما يؤدي إلى اسـتهلاك مسـاحة أكبر من هـذه المقـالـة , آثر هـذا العمـل التنبيـه إلى منطلق معرفي مهم يرتبط بـالعلمين و يهيئ الكلام لفكرة الموضوع الأساسية .. هذا المنطلق هو : التذكير التنبيه إلى أن (.. علم الكلام كغيره من العلوم الإسلامية تحكّمـــــــت في مساره و تحديد وجهتـــــه مجموعة من المكونات و العناصر التي واكبت نشأته , و تلك

العناصر كما هو معلوم تنتمي إلى عصر مضى و انقضى , و لم يبق منـــه سوى ما حفظه التاريخ , و لم يكن التفكير الكلامي الذي وُلد في ذلك العصـــر إلا مرآة لحياة المجتمعات الإســـلامية , ارتســـمت فيها الأســـئلة و التحديات و الهموم المتداولة في تلك المجتمعات آنذاك , و تم لاحقا تعميم الآراء و المقولات الكلامية التي تبلورت في فضـــاء تلك الأســـئلة و التحديات , و هي مقولات و آراء لاتعرف أســـئلة حياتنا الراهنة , الأســـئلة المنبثقة من تحديات و هموم نمط حياة يختلف عن نمط الحياة الذي انبثقت عنه التحديات الماضية اختلافا تاما ...) [3] ..

و لهذا يمكن القول أن علم البلاغة و علم الكلام إنما هما علمان من العلوم الإســـلامية , كل منهما – لا محالة – قد (.. تأثر في نشـــأتـــــه و مســـاره بمجمل الأحوال الســـياســـية و الاجتماعية و الاقتصـــادية و الثقافية و الإثنية في المجتمعات الإســـلامية , فعندما يكون المجتمع في حالة نهوض , يتشـــكل الإطار الاجتمـاعي الملائم لنمو المعرفـة و تطور العلوم , فينمو و يتكامل التفكير .. كغيره من أبعـاد التفكير .. الأخرى في الإســـلام . أما إذا دخل المجتمع مســـار الانحطاط , فســـوف يتداعى الإطار الاجتماعي لتطور المعرفة , و تســـود حالة من تشـــتت العقل و تشـــوّه رؤاه , تدخل معها معارف الدين و علومه مســـار الانحطاط , تبعا لما عليه أحوال المجتمع , فيتراجع دور العقل ...) [4] .. و يحدث الأمر نفســـه بالنســـبة للذوق الجمالي (.. و تغدو المحاولات الجديدة استئنافا للمحاولات الماضية , لا تتخطى أسئلتها و مسائلها , بل و بيانها و أساليب تعبيرها ...) [5] ..

<u>حركية التراتب بين العلوم / النظام المعرفي في المجتمع</u> :

مما يعتبـر من الحقائق المعرفية التي يجب أن ينتبـه إليها الدارس في مختلف الحقول العلمية الإنسانية و الطبيعية و يوليها الباحث عنايـة معتبرة أن طبيعة النسق المعرفي / الحقل العلمي من حيث البعد المفهومي (يرتبط ... في الفكر الحديث بالبحوث التي قدمتها دراســـة الأطر الاجتماعية للمعرفة , و ما انتهت إليه من تصورات تكشف عن تغير أشكال المعرفة و علاقاتها عبر العصور المختلفة , و تأسيس هذا المفهوم في بحث الظواهر الأدبية و البلاغية ضـروري لمتابعـــــة التحولات التي تفرض على الباحث

---

[3] - عبد الجبار الرفاعي : مقدمة في علم الكلام الجديد , مؤسسة هنداوي , 2024 م , ص : 42 .

[4] - المرجع نفسه , ص : 40 .

[5] - المرجع نفسه , ص : 40 .

المعاصـر اتخاذ موقف منهجي صحيح في التعامل مع المادة التي يتقدم لدرسـها , و معرفة علاقاتها ببقية وحدات المنظومة التي تستمد منها مقولاتها ..)[6]

في للعلوم حركيتان واحدة عمودية و الأخرى أفقية و توضيح ذلك في ما يلي :

أ – الحركة العمودية / الرأسية :

(قد تبين أن الأنواع المعرفية تتراتب وفقا للأنماط الاجتماعيـــــــة في منظومة هرمية , و في هذا الهرم المتغير من عصر إلى آخر يخترق النوع أو الأنـــواع المسيطرة جميع الأنواع الأخرى و يخضعها لرؤيتـــه و توجيهـــــه , و مثال ذلك أن المعرفة الفلسـفية و الإدراكية للعالم الخارجي كانت تحتل المرتبة الأولى في اليونان القديمة و تخترق الأنواع المعرفية الأخرى التابعة لها من : منطق و رياضـــة وطبيعة و طب و غيرها , كما يفترض أن ذلك هو وضع المعرفة العلمية في ظل نظام الرأسمالية الحرة , حيث أخذت تلك المعرفة تحتل المقام الأول في المجتمعات الديمقراطية في العصـــر الحديث , فأصـــبحت الأولوية فيها للعلوم الطبيعية الدقيقة و ما يترتب عليها من تقنيات مختلفة ..) [7] ..

خطاطة / الهرم العلمي –

وضع العلوم في اليونان القديمة

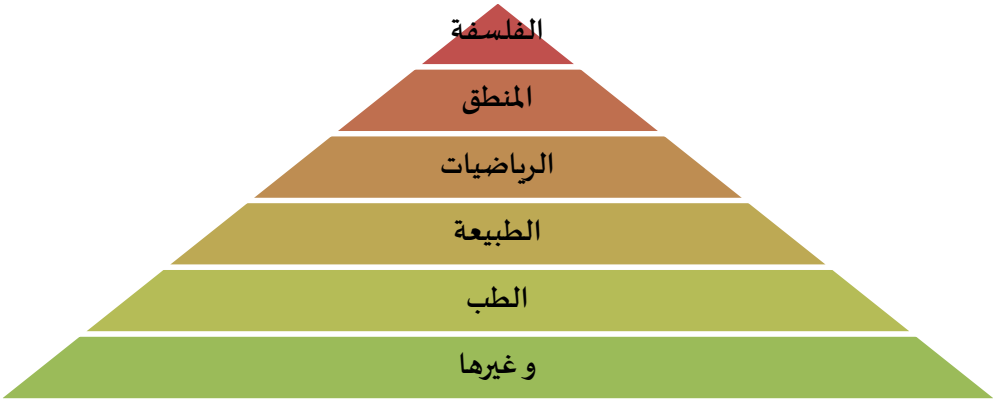

(و قد أخذ ارتقاء المعرفة العلمية إلى المرتبة الأولى يتأكد بعدة طرق , و صـار من المسـام به أن التقنية ليسـت سـوى تطبيق عملي لنظريات العلوم , بحيث يمكن القول إن الفلسـفة قد تركت سـيادتها الأولى

---

[6] - صلاح فضل : بلاغة الخطاب و علم النص , عالم المعرفة , العدد 164 , يناير 1978 م , ص : 09 .

[7] - صلاح فضل : بلاغة الخطاب و علم النص , ص : 09 – 10 .

في النظام المعرفي للمجتمع الديمقراطي الحر , و تقبلت من دون مقاومة فعلية ارتقاء المعرفة العلمية إلى ذروة الهرم , تليها المعرفة التقنية في المرتبة الثانية , ففي ظل ازدهار اســتعمال الآلات , مع التقدم المتحقق في تنظيم العمل , و في الابتكارات الجديدة و ثورة المعلومات تصبح المعرفة التقنية أبـرز مظاهر التوظيف الاجتماعي للمعرفة العلمية ...) [8] ..

خطاطة / الهرم العلمي –

وضع العلوم بعد اليونان القديمة

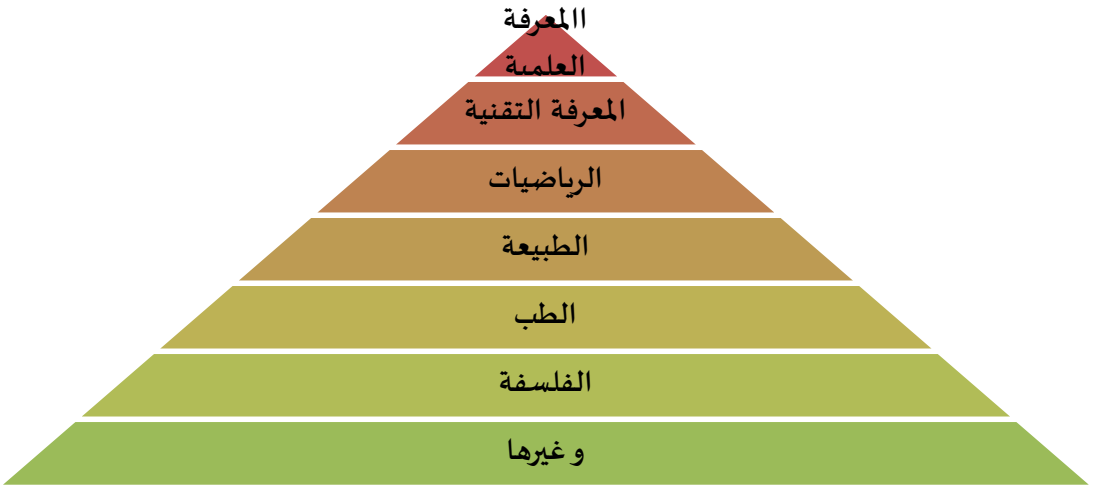

(.. يقتضـي مفهوم التراتب بين الأنواع المعرفية : أن تصـبح الفلسـفة ذاتها منتظمة في الهرم العلمي و خاضـعة له , مما يجعل مبحث المعرفة مضـطرا إلى لأن يرتبط بفلسـفة مفتوحة , تتلقى دروسـها من العلم , و لا تأتي إليه بأحكامها و إرشـاداتها و إسـقاطاتها , فتحاول في هذا الوضـع الجديد أن تتعقب خطواته كي تكون وعيا بالعقلية العلمية , تلك العقلية التي تعمل من أجل اكتشـاف المجهول , إنها فلسـفة مرتبطة بالعلم منتبهة لعثراته و عقباته , تحاول التعرف على مراحل التقدم التي تخطوها الفروع المختلفة ...) [9] ..

ب – الحركة الأفقية :

اسـتقلالية الحقول العلمية عن بعضـها البعض و انفصـالهـــا موضـوعا و أجهزة معرفية و مصطلحيا و طرائق مقارباتية وضعية ابستمولوجية تصنـع لكل مجال علمي وجوده بين شبكة مختلف

---

[8] - صلاح فضل : بلاغة الخطاب و علم النص , ص : 10 .

[9] - المرجع نفسه , ص : 10 .

العلوم الأخرى و يرسم معالم حدوده التي تحول دون التبعية التي تشكل إبداعية العلم و التجاوزات المسيئة للبحث العلمي ... كل ذلك بات حقيقة لا يختلف حولها ما وصل إليه الدرس العلمي الحديث , إلا أن ذلك (الفصل) المنهجي و المنهاجي لا يمنع البتة (الوصل) المعرفي التلاقحي و التثاقفي و التكاملي بين مختلف العلوم الإنسانية لأن (.. نقل المعلومات من حقل من حقول المعرفة إلى حقل آخر له أثر كبير في هذه المعلومات و هذه المعارف , و قد قدم لنا **عبد القاهر** نموذجا ناجحا لهذا الضر من تحريك الأفكار و أدخلها في حقول علمية جديدة , و ذلك حين كان ينقل كثيرا من أفكار **سيبويه** إلى البيئة البلاغية , و قد رأينا هذه الأفكار تتسع و تصير خصبة و ذات مذاق مختلف و آثار مختلفة ...) [10] .. و هكذا فالظاهرة صارت إمبريقية لا تخلو منها حضارة من الحضارات و لا تغيب عن أي مرحلة من مراحل التطور العلمي الإنساني العربي و غير العربي .. و لهذا فـ(.. العلوم و العلوم الإنسانية بالذات يؤثر بعضها في بعض , و يتأثر بعضها ببعض و يستعير بعضها مصطلحات البعض ... العارفون يعلمون أن **ليونار بلومفيلد** أب البنيوية التوزيعية .. لم يزد على أن جعل من السلوكية .. عمليا في البحث اللساني فتبنى طرائقها و عددا كبيرا من مصطلحاتها , و قل قريبا من هذا في **تشومسكي** .. و تأثره بالرياضيات و الفلسفة , و كذلك فإن اللسانيات استعارت مصطلحات كثيرة من علم الأحياء و الفيزياء و الرياضيات و المنطق و الإعلامية و الطب بمختلف اختصاصاته . و من ناحية أخرى فإن اللسانيات تحولت مبكرا إلى علم رائد يعير غيره من العلوم الإنسانية مصطلحاته و وسائل إجرائه , و يكفي أن نذكر في هذا السياق **كلودلفي شتراوس** .. الانتروبولوجية البنيوية .. و **رولان بارت** .. بداية من كتابة : أساطير .. إلى أعماله اللاحقة , و **ميشال فوكو** .. الكلمات و الأشياء , و غير هؤلاء كثير, ذلك لنعلم أن لا حدود بين العلوم و أن لا ضير في أن يستعير الواحد منها مصطلحات الآخر ..) [11] .. و مفاهيمه و آلياته بعد تكييفها طبعا وفقا لطبيعة العلم المنقول إليه ..العلوم لا تتحرك من حيث التراتبية حركة على المحور الراسي فقط كما تقدم عرضه , بل كذلك لها حركية ثانية لا تقل أهمية و قيمة عن الحركة الأولى , إلا أنها حركية تتميز بانتمائها إلى المستوى الأفقي , بحيث تسمح في ظروف معرفية و ثقافية نوعية حدوث تجاذب بين حقلين معرفيين أو أكثر , تتداخل فيه المعطيات و المفاهيم .. و تتوالد مصطلحات توافيقة و إجراءات تماثلية .. مما يكسب تلك الأنساق المعرفية العلمية المتداخلة قدرات

---

[10] - محمد محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري – و أثرها في الدراسات البلاغية , مكتبة وهبة , ط:02 , 1988 م , ص : 08 .

[11] - محمد النويري : المصطلح اللساني بين واقع العلم و هواجس توحيد المصطلح , مجلة علامات ج 08 – م 02 محرم 1414 هـ - جوان 1993 م , ص : 247 .

تحليلية و توصـــيفية و تأويلية فاعلة ... ما كانت لتكون لولا هذا الاندماج المعرفي الذي تمت مقبوليته من قبل كل الأطراف المتداخلة ...

1 – التداخل بين العلمين – الاتجاه و التكيف :

شهد التقارب المعرفي بين علم الكلام و علم البلاغة مرحلتين أساسيتين كانت وجهة التقارب هي المحددة لهوية المرحلة و المميزة لها

أ – ففي المرحلة الأولى/ من البلاغـــة إلى علم الكلام : كان التقارب اتجـــاهه منطلق من (علم الكلام) نحو (علم البلاغة) , حيث تحرك الحقل المعرفي الكلامي بكل أجهزتـــه المعرفية و المصطلحية اتجـــاه علم البلاغة , محاولا بسط حضوره و تقديم مرجعياته وسائل تمنح للنظرية البلاغية العربية قدرة على مواجهة تحديات المرحلة التاريخية و أسئلتها الإشكالية التي كانت تتمحور أساسا حول قضايا العقيدة و مشتقاتها المعرفية أصولا و فروعا .. و لعل ذلك عائـــد إلى أن (علم البلاغة) كان في حاجـــة إلى دعم نظامـــه البنيوي المعرفية و تخصيبـــه بقوة إمكانيات (علم الكلام) و إمكاناته الفعالة المتاحة وقتئذ , و التي استطاعت أن تتصدى بالأدلة العقلية و الحجج الإقناعية لما كان سائدا من طروحات تشكيكية و شبهات عقدية و غير عقدية جراء التداخل الثقافي و تنوعـــه التي أسفر عنها الفتح الإسلامي و انتشاره في الاتجاهات الجغرافية الأربعة جميعها ...

ب – أما في المرحلة الثانية / من علم الكلام إلى البلاغة : فقد تغير اتجـــــاه حركية التقارب بين (علم الكلام) و (علم البلاغـة) , لتتوجـه هذه الأخيرة إلى علم الكلام مقدمة ما تملكـه من إمكانات مفهومية و أدوات إجرائية فتصبـــها في مجالـــه , و في هذه المرة ... حتى تسمـــح له بتجاوز المستويات التحليلية المعهودة السطحية من الظاهرة إلى المستويات العميقة المعرفية , سواء أكان ذلك في حدود عالم النص اللغوي أو عوالم النصوص غير اللغوية ...

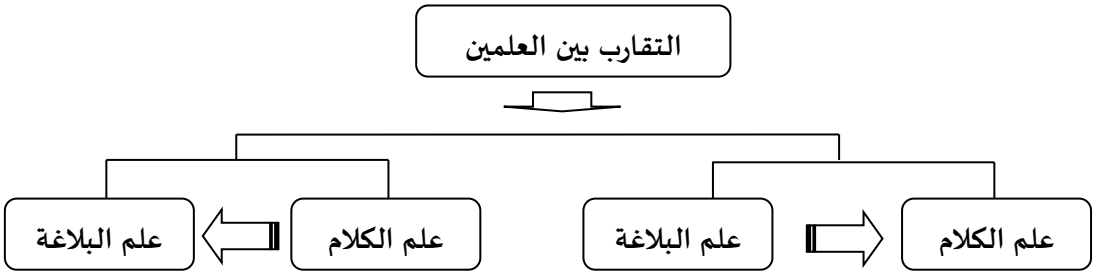

2 – **تفعيل القراءة النصية - ولادة نظام/نموذج قرائي :**

آ – نظام قرائي لغوي فقط :

ب – نظام قرائي لغوي و غير لغوي :

أ – النظام القرائي الأول (الجمالية - الأدبية) : عبارة عن نظام قرائي لغوي فقط , يتناول النص المستحيل / المقدس و النصوص الممكنة / الإنسانية خاصة تلك التي تتميز بالفرادة و النوعية الإبداعية .. في إطار كونها وسيلة جمالية و تأثيرية و إقناعية حتى ..

ب – النظام القرائي الثاني (المنهجية - التفسيرية) : نظام قرائي منهجي مقارباتي و تحليلي تفسيري , يتناول الظاهرة البلاغية ببعديها اللغوي و غير اللغوي , مستعملا إياها معبرا و وسيلة إجرائي فعالة تأخذ بيد الدارس إلى الأبعاد العميقة المعرفية للظاهرة البلاغية على مختلف تجلياتها , و من هناك يستطيع أن يتعرف على النظام المعرفي الثقافي و الحضاري الكلي و النهائي الذي منه و به يكتسب النص البلاغي اللغوي و غير اللغوي وجوده و حياته و تجذره في المجتمع الإنسانية و مقبوليته التي تعطيه الدافعية و الإستمرارية في التأثير و الإقناع و المغالبة كذلك ...

3 – تفعيل البعد الوظيفي و المجالي :

<u>من مظاهر المخاصبة بين العلمين</u> :

1 – توسيع إطار الوظيفة : لتتجاوز مستوى الجمالية الأدبية – الشعرية إلى مستوى المعرفة و المنظومات الفكرية التكوينية (النماذج الكامنة) , و من ثمة تنتقل من مقاربة البعد التعبيري الفني إلى مقاربة البنية المعرفية و المرجعيات التأسيسة الكلية و النهائية خاصة .

2 – توسيع مجال الرؤية : ليشمل من جهة النص الأدبي و غير الأدبي .. السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي و العلمي و الثقافي .. و من جهة أخرى النص اللغوي النثرية منها و الشعرية و غير اللغوي التي تعني هنا الظواهر الحياتية المتنوعة الماضية و الحاضرة المعيشة في مختلف تجلياتها الفردية و الأسرية و المجتمعية و الوطنية و الدولية و الإنسانية ...

4 – **نماذج توضيحية :**

<u>دينامية الصورة المجازية</u> :

يمكن اعتبـــــار صفة الحركة العامة من أهم المميزات التي تكون طبيعة الصورة المجازية في البلاغـــة العربية , و ذلك يعـــود إلى قدراتهـــا الفائقة على (.. ربـــط العنصر المادي البسيط بعناصرة معنويـة مركبـة , و ربط ما هو معروف و محسوس (عالم الشهادة) بما هو غير معروف و غير محسوس (عالم الغيب) حتى يصبح غير المعروف و غير المحسوس أكثر قربا منا نحن البشر الذين نعيش في عالم المادة و داخل حدوده , و إن كنـا نحلم بمـا وراءه . و بذا تصبح الدوال اللغوية أكثر اتساعا و تركيبا , و هو دائما اتسـاع و تركيب يجعلها أقل التصـاقا بالمادي و الطبيعي , و أكثر اقترابا من المعنوي و الروحي و الإنساني , أي أنـه يبتعد بها عن الطبيعة / المادة , و يصل بها إلى تلك الأبعـاد التي لا يمكن استيعابها في النظام الطبيعي / المادي . و بذا تصبح اللغة العادية , القادرة على التعبير عن الظواهر العلمية و المادية و الحياة اليومية في جانبها المادي – أداة كافية إلى حد ما , تعبر عن بحث الإنســان عن قدر معقول من اليقين , دون الطموح إلى الوصـــول إلى الحقيقة النهائية , و دون الســـقوط في العدمية المطلقة . كما تصـبح أكثر قدرة (من خلال الاسـتعارات و الكنايات و المجاز) على التعبير عن الجوانب الإنسـانية غير المادية في خيرها و شرها , أي أن المجـاز اللغوي هو : أداة الإنسان للتعبير عن أفكـــار و رؤى مركبـــة لا يمكن التعبير عنها إلا بهذه الطريقـــــة ...) [12] ... و زيادة على هذه الخاصية المميزة للصورة المجازية التي تعمد إلى نقل الداخل / عالم المشـاعر و الأفكار و الأرواح إلى الخارج / عالم الترميز و تدوين و الكتابة .. , فهي تملك كذلك من المرونية ما يجعلها تنقل الخارج / عالم الثقافة و عالم الطبيعة .. إلى الداخل / الوعي الإنساني .. و ذلك إنما يعـود إلى أن (.. الصورة المجـــــازية : وسيلـة إدراكيـة لا يمكن للمرء أن يدرك واقعـه دونها , أو حتى أن يعبـر عن مكنون نفسه إلا من خلالها . فالصورة المجـــازية : هي جـزء أساسي من عملية الإدراك , و هي بالتالي مرتبطـــة تمام الارتبـــاط بالنماذج المعرفية و الإدراكية و رؤية الكون , و خير وسيلـة للتعبير عنها . و يوجد داخل كل النص , مكتوب أو شفهي , نمـــوذج كامن يستند إلى ركيزة أساسية , عـــادة ما تترجم نفسها إلى صورة مجـازية , استخـدمها صاحبها (بوعي أو بغير وعي) للتعبيـر عن هذا النموذج , و يتجلـى النموذج الإدراكي (المجـرد) من خلال الصور المجـــــازية بشكل

---

[12] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , دار الشروق , ط1 : 2002 م , ص : 17 .

ممتعين مباشر , و بالتالي تتضح مرجعيته النهائية , و قد لا يمكن إدراك طبيعة النموذج و بنيته دونها ..) [13] ...

طريقة الوصول إلى النموذج الكامن من خلال الصورة المجازية :

مما يمكن اعتباره من السلوكيات الخاصة التي تحتاج إلى نوع متميز من الباحثين هو ممارسة الفعل الحفري المعرفي ذي المقصدية و الهدفية من خلال وساطة (الصورة المجازية) أداة فعّالة في مقاربة النصوص المختلفة لاستخلاص النموذج المعرفي الكامن الكلي و النهائي ... ذلك يقوم على منهج تحليلي - تركيبي يمر عبر خطوات منهجية ثلاث هي :

أ – القراءة : (.. قراءة النص عدة مرات , حتى يضع يده على الصور ألساسية المتواترة ...) [14] ...

ب – الوصل / التعليق : (.. يحاول أن يربط بينها , و يعرف دلالتها من خلال السياق التي ترد فيه ...) [15] ...

ج – التجريد : (.. ثم يجرد منها نموذجا معرفيا , و بالتالي تتحول أجزاء النص التي قد تبدو مبعثرة إلى كلٍّ متماسك ..) [16] ...

1 – الصورة المجازية و النصية الأدبية :

يستعمل المظهر البلاغي و منه على وجه التخصيص المجاز بأنواعه المختلفة وسيلة فعالة و آلية قيمة منها يلج الباحث / القارئ عبر المستويات التحليلية المعروفة : الصوتية و الصرفية و التركيبية و الدلالية .. إلى عوالم المستوى المعرفي , ومنه يفتح أبواب عالم الأفكار و عالم الثقافة انطلاقا من كل مكوناتها .. طلبا للنواة المعرفية المؤسسة الكامنة للنص / الخطاب اللغوي .. و التي تتمثل عادة في النموذج المعرفي الكامن النهائي و الكامل و المجسدة له ... و من الأمثلة التوضيحية على ذلك الجمل النصية الآتية :

جملة نصية / خطاب (1) : **دخل الأسد قفصه .**

---

[13] - المرجع نفسه , ص : 18 .

[14] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , ص : 18 .

[15] - المرجع نفسه , ص : 18 .

[16] - المرجع نفسه , ص : 18 .

هذه الجملة النصية / الخطاب الأولى وفقا لاستيعاب ما تقدم عرضه , يمكن عندئذ تحليلها و فقراءتها على الشاكلة الآتية (إن رأينا **أسدا** يدخل قفصه في حديقة الحيوان فإننا سنقول : دخل **الأسد** قفصه . و المعنى هنا واضح و محدد إلى حد بعيد , فالكلمات تستخدم بمعناها المعجمي الأصلي , و كلمة (الأسد) تشير إلى الحيوان المعروف الذي يسير على أربع , و الذي يمكن أن نعرف صفاته التشريحية الكاملة المادية بالعودة إلى المعاجم العلمية عن الحيوان , فالمسافة بين الدال و المدلول ضيقة ...)[17] ... بينما إذا أخذنا المثال الثاني من الجمل النصية / الخطاب في إطار سياقها الطبيعي سيتم ملاحظة الكثير من المعطيات الجديدة و الإشارات الدلالية و العلاماتية ما كانت لتنتج و تندلق من عمق النص / الخطاب لو كان هذا الأخير مغلق على نفسه و منفصل عن بيئة استعماله , هذا و غيره يبينه المثال الأتي :

جملة نصية / خطاب (2) : أ - **هذا إنسان نبيل و عظيم و شجاع .**

أ- **جاء الأسد .**

هذا النوع النصي /الخطاب يتم إنشاءه عادة في ملابسات دقيقة و طبيعية , و ذلك (.. إن رأينا رجلا فيه صفات معينة مترابطة ترابطا فريدا مما يبعث فينا إحساسا بنبله و عظمته و شجاعته , فإنه يمكن أن نقول : ***هذا إنسان نبيل و عظيم و شجاع*** . و يمكن أن نضيف ما نريد من الكلمات و أن نرصّها رصّا , و لكن رغم هذا ستكون عبارتنا غير مركزة , و لا تعبّر بشكل كاف عن إحساسنا . فالشجاعة و العظمة و النبل صفات مجردة للغاية , و يمكن أن ندرك كل صفة على حدة , بشكل مجرد , لكن ما شعرنا به هو إحساس بهذه الصفات مجتمعة بشكل فريد في هذا الرجل , و بدرجة معينة لا تتوافر في الآخرين , و بشكل مباشر متعين يجعل الكلمات المعجمية عاجزة تماما عن نقل هذا الإدراك الخاص بنا و هذه الفرادة التي رأيناها في هذا الرجل , و لذا فإننا نهرع إلى عالم الطبيعة و المحسوسات نبحث عن عنصر محسوس فيها لنحوله إلى إشارة كافية إلى هذا الإحساس , فنقول : ***جاء الأسد***)[18] ...

---

[17] - المرجع نفسه , ص : 15 .

[18] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , ص : 15 .

و من دون النظر إلى حجم النص / الخطاب بناء على أن وجوده متعلق بما يقدمه و يحققه من وحدة دلالية كلية تواصلية لا اتكاء على حجمه و شكله , و لذلك فإن (.. العبارة السابقة رغم بساطتها الظاهرة إلا أنها نتيجة عملية في غاية التركيب , فابتداء تحوي العبارة طرفين :

- صفات الرجل (خصوصا شجاعته)

- وصفات الأسد (خصوصا شجاعته) ,

و قد ربطنا الواحد بالآخر , فتكشفنا صفات الرجل من خلال قيامنا بربطها بالمحسوس و المتعين , أي صفات الأسد . و قد تمت عملية الربط هذه من خلال عمليات في غاية التركيب . فنحن أخذنا كلمة : رجل (المحذوفة في الاستعارة , و التي لا تحذف في حالة التشبيه – و هو أمر لا يهمنا كثيرا) و أفرغناها قليلا من محتواها الإنساني , و نظرنا إلى بعض جوانب الرجل باعتباره أسدا . و لكننا فعلنا شيئا قريبا من هذا مع الأسد , , إذ إننا أخذنا بعض جوانب وجوده المادي و أفرغناها قليلا من مضمونها الطبيعي / المادي , و نظرنا للأسد (في جوانبه هذه) باعتباره إنسانا واعيا له صفات إرادية معنوية مثل الشجاعة و الإقدام و القوة و العزة و الإباء ..) [19] ... فعملية الإفراغ و الملء التي تطال طرفي العملية البيانية (المشبه / الرجل) و (المشبه به / الأسد) وفقا لتوازنات دلالية دقيقة , و إن كانت ذات طبيعة معقدة و مركبة , تتم في المواقف التواصلية الطبيعية بسلاسة أو ببعض المعاناة في المواقف الإبداعية الفنية العالية , و لهذا يمكن للباحث العارف – في هذا السياق - أن يرصد الكثير من الملاحظات بل و يلامسها .. منها على الخصوص (... أن هذه صفات لا يمكن لمعجم علمي أن يخلعها على **الأسد** , فهي في واقع الأمر صفات وجدنا (لأسباب ذاتية و إنسانية خاصة بنا كبشر) أنها من صفات الأسد . و نحن نتصور أننا جردناها من السلوك المادي للأسد , و من طريقة سيره و تعامله مع الحيوانات الأخرى , و نحن في واقع الأمر أسقطناها عليه (فالأسد حيوان أعجم ليس لديه وعي أو ضمير) , أي أننا خرجنا بالأسد قليلا من عالم الطبيعة/المادة . و من خلال عملية الربط هذه (التي تحول الرجل في بعض جوانبه إلى اسد , و الأسد في بعض جوانبه إلى رجل , و التي تتداخل فيها العناصر الذاتية المعنوية بالعناصر الموضوعية المادية) تم توسيع نطاق الكلمة (الدال) و تطويعها , للتعبير عن إحساسنا المركب (المدلول) بشجاعة هذا الرجل , أي أننا حاولنا أن نضيّق المسافة التي تفصل بين الدال و المدلول ..) [20] ...

---

[19] - المرجع نفسه , ص : 15 – 16 .

[20] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود, ص : 16 .

إن عملية الفصل و الوصل و تقريب العلاقة و إبعادها في الوقت نفســـــه في إطار الصورة البيانية / المجازية بين المكونات الأساسية للمشهد البلاغي , يحافظ على قابليتها و جهوزيتها للاستعمال مرة أخرى في مواقف تواصــلية مختلفة لنقل الحالات التعبيرية المركبة المشــاعرية و الروحية و الفكرية و الميتافيزيقية كذلك إن اقتـــضى الأمر , و بالتالي فالأمثلة النصية السالفة يمكن النظر إليها من زاويـــة أخرى و المتمثلة في أنــه (.. رغم أننا ربطنا الرجل بالأسد و وجدنا علاقة معينة بينهما , إلا أنه ينبغي لنا ملاحظة : أننا فصلنا أيضا الواحد عن الآخر , فحينما نقول : إن كذا يشبه كذا في هذه النواحي , فإننا نقول في واقع الأمر أيضا : إن كذا ليس بكذا , إذ إنه لا يشبهه في كل النواحي الأخرى . و حينما أخبر أحد طلابي أنه مثل إبني , فإنني أعطيه إشارة بأنه يمكنه الاقتراب مني , و لكنني أيضا أخبره أنه ليس بابني , فهو يشبهه فحسب , و لذا فإن عليه أن يحتفـــظ بمسافة بيننا . فالتشابه في بعض الوجوه يعني عدم التطابق في جميع الوجوه , فهي علاقة اتصال و انفصال في ذات الوقت , و الربط بين جـانبي المجـــاز لا يعني عملية المزج العضوي ...) [21] ...

ب – و في نموذج تطبيقي آخر يتســم بالأدبية الروائية التي تحتاج إلى قدر كبير من الوعي الفكري و الذائقة الفنية النوعية , نلحظ مرة أخرى فعالية النموذج التحليلي المنتخب في سياق السالف الذكر , و عليه بعد تجربة قرائية عميقة يؤكد عبد الوهاب المسيري أنـــــه (.. حين ندرس مسرحية ماكبث لشكسبير , يمكن أن نلاحظ تواتر صور عديدة , من أهمها صورة الدم التي يستخدمها كلٌّ من ماكبث و زوجتــه بشكل متكرر . و بعد دراسة السياقات المختلفة التي ترد فيها صورة الدم , سنلاحظ ارتباطها بالإحساس العميق بالندم الذي يشعــر به البطلان بسبب الجريمــة التي اقترفاها , و محاولتهما إخفــاء هذا الشعور دون جدوى , و ينتهي الأمر بأن تنتحر الليدي ماكبث , أما ماكبث فيُلقي بنفسه في أحضان الحتمية و القدرية , و يرتكب الجريمة تلو الأخـــرى , و مع هذا يظل إحســـاسه بالندم قويا حتى و هو يخوض في بحار الدم ...) [22] ...

2 – <u>الصورة المجازية و النصية غير الأدبية</u> :

التعامل مع الظاهرة غير الأدبية / الشــعرية بالمنهجية نفســها المســتعملة في مقاربة المنجزات الأدبية يعود في أساســـه إلى نقطـــة تقاطع معرفية / علمية مركزية مشتركة بينهما , تتمثل في أن (.. تحليل الصور المجـازية كمدخل لفـهم النصوص , أدبية كانت أم سياسية , و إدراك مستوياتها الواعية

---

[21] - المرجع نفسه , ص : 16 .

[22] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , ص : 18 .

و غير الواعية , منـــهج لم يستخـــدم بما فيه الكفاية في عالمنـــا العربي , مع أن مقدرتـــــه التحليلية و التفسيرية عاليـة إلى أقـصى حد ..) [23] ... و إنما تعـود فعّالية هذه السمة المنهجية التحليلية إلى كون (.. كل نموذج معرفي , إدراكي أو تحليلي ... يترجم نفسه إلى صورة مجـــازية . و الصورة المجازية قد تكون : واضحة صريحة و بسيطة و مألوفـــة (***هذا الرجل يسير كالأسد***) , و قد تكون : واضحة و مركبـة و غير مألوفة (***تهطل الأحزان كسحابة باكية***) , و قد تكون : كامنـة و مألوفة إلى لدرجة لا يلاحظها الدارس , فنحن نقول : ***إن القطارات في سـويسـرا تسـير كالسـاعة*** , أو حين نقول : ***لا بد من تنمية مجتمعتنا*** , فنحن نستخـدم) صورا مجازية , إذ إننا نشبـه القطارات في المثل الأول بالساعة , و نشبه مجتمعنا في المثل الثاني بالنبات الحي . فالمثل الأول يستند إلى صورة مجازية آليـــــــة , و الثاني إلى صورة مجازية عضوية . و الصورة مألوفة لدرجة أننا لا نلاحظ وجودها , فقد أصبحت جـــزءا من خطابنا اليومي ...) [24] ...

الكثير من الدراســات العلمية الحديثة , و خاصــة تلك التي أنجزها عبد الوهاب المســيري من خلال مســاره الأكاديمي المتميز , كل ذلك قد وضــع عصــا الترحال البحثي قبالة جملة من الحقائق و النتائج المتصفة بالكثير من الموضوعية العلمية .. كان على رأسهـا هذا المعطى المعرفي الذي فحواه أن (.. الإنســان يدرك العالم من خلال عدة صـور مجازية , من أهمهـــــا الصـورتان المجازيتان : الآلية و العضوية اللتان تجسدان نموذجين أساسيين :

- نمودج آلي ,

- و نموذج عضوي .

و قد سُميا كذلك لأن كل واحد فيهما يحوي صورة مجازية مختلفة .

- الصورة المجازية الأولى : تصور العالم على هيئة كائن حي و حركته عضوية , فهو ينمو بشكل عضوي .

- أما الثانية : فتصور العالم على هيئة آلـــــــة حركتها آلية , فهو يتحرك بشكل آلي رتيب . و الصورة المجـــازية هنا كامنة إلى حدّ كبير في النموذج , إلى درجة أننا يمكننا أن نـرى درجة من الترادف بينهما ..) [25] ... و بناء على ما تقدم فإنـــــه (.. يمكن تطبيق هذا المنهج على المجالات : الدينية و السـياسـية و

---

[23] - المرجع نفسه , ص : 27 .

[24] - المرجع نفسه , ص : 28 .

[25] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , ص : 28 – 29 .

الحضارية و الفلسفية ..) [26] ... و عرض ذلك كلــه لا تسمح بــه طبيعة هذا العمل المتواضع و مساحة القانونية .. و عليه ننتخب من تللك المجالات السالفة ما يلي

أ – <u>الاستخدام الديني / العقدي</u> : المجاز و إدراك الإله

من الشــواهد الدالة بوضــوح على العلاقة النوعية القائمة بين علم البلاغة و علم الكلام و التداخل الكبير بين المقاصــد و الغايات , و حاجة هذه المرحلة التاريخية من حياة الأمة العربية التي تتعرض لهجمات شرســـــة لا تستهدف ثرواتها المادية المتنوعة فحسب , بل تسعى إلى خلخلت بنيتها العقدية و استئصال جذورها الإيمانية و فصلها نهائيا عن مرجعيتها التكوينية و الوجودية .. و لهذا فــ(المجــاز ليس وسيلتنا لإدراك الوجود الإنساني المركب و حسب , و إنما هو أيضا و سيلتنا لإدراك الإله و إذ إنه يربط بين بعض صفات الإله المتجاوزة للأسماع و الأبصار من جهة و بعض الشواهد المادية التي تدركها الأسـماع و الأبصـار من جهة أخرى , فهو ربط بين المحدود الإنسـاني و اللامحدود الإلهي . و رغم محاولة الإنسان إدراك الإله من خلال المجــاز , فإنــه – في الإطار التوحيدي – يعرف أنــه لن يدركه في كل جوانبــه فهو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ *(الشورى : 11)* . فالإلــه ليس كامنا أو حالا في افنسان أو الطبيعة أو التاريخ . أما الإنسان , فرغم مقدرته على التجاوز , إلا أنـــه يعرف تمام المعرفة أنـــه يعيش في عالم الطبيعة / المادة . و مهما بلغ المجــاز من تركيب و عمق و جمال , فإن المسافة تظل واسعــة , إذ إنــه لا يمكن تشــبيهه عزّوجل بشــيئ . و هو لا يتجســد في الأشــياء أو يمكن أن يحل فيها , و هو لا يتواصــل مع البشر من خلال التجسد و الكمون و الحلول و اختزال المسافات و المساحات و الثغرات . فهو المركز , أو المدلول , المتجاوز , الموجود خــارج المادة , و لكنــه مع هذا يرسل للإنسان رسالة مكتوبة مركبة للغاية . و لأن الإله المطلق هو صاحبها , فإن مضمونها أكثر تركيبا مما يمكن للإنسان أن يحيط به و و مع هذا , و لأن الإله يريد التواصل مع الإنسان , فقد أرسل رسالته بلغة بشرية مفهومة ﴿ **لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ *(النحل 103)* . و قد جاء في القرآن الكريم ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ *(الكهف 109)* , فلو أننا استخدمنا البحر – هذا السائل المادي النسبي , الذي ستُكتب به كلمات إنسانية نسبية – للإشارة إلى المدلول الرباني , لعجـــزت كل الدوال , لأن المدلول الرباني متجاوز لكل ما هو مادي , و قد استخدمت الآية المجاز (لو كان البحر) لحل معضلة التواصل ...) [27] ...

---

[26] - المرجع نفسه , ص : 19 .

[27] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , ص : 159 .

و إن المجاز من حيث الوظيفة الأساسية في مجال التكوين العقدي و انطلاقا من (.. الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله يعبّر عن هذه العلاقة المركبة : الاتصال و الانفصال و التواصل و التجاوز ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (*النور 35*) . إن البنية العامة للمجاز هنا هي تقريب الله من الإنسان من خلال استخدام عناصر من عالم الإنسان المحسوس يتم الربط بينها و بين الله (الله مثل النور) , و تتم عملية الفصل (و تأكيد التجاوز و عدم الكمون) على نطاق مركب للغاية , تظهر في تكثيف المجاز حتى لا نرى مركزا واضحا , و لا نرى علاقة محددة بين الله و النور , إلى أن نصل إلى الصورة المجازية (نور على نور) , و هي صورة بلا مركز , خالية تماما من أي كمون أو حلول أو تجسّد , تعبّر عن المركز المتجاوز . و حين نفقد الإحساس بالمركز ' فإننا ندرك الإله من خلال المجاز, و لكننا لا نسقط في الإحساس بأنه تمت الإحاطة به تماما من خلال تشبيهه بعناصر أرضية , إذ يظل إحساسنا بتجاوز الله عز و جل للطبيعة و التاريخ إحساسا عميقا , فهو مثل النور , و لكنه ليس بنور .. فليس كمثله شيء ...) [28] ...

إذا , فمقاربة الموضوعات العقدية الموغلة في الغيبة الشديدة الانتماء إلى عالم الغيب .. شرحا و تفسيرا أو حجاجا و مجادلة عملية علمية شديدة التعقيد و التركيب تحتاج إلى نوعية خاصة من العارفين الجامعة بوعي عميق و دراية محكمة – على الأقل تقدير- بين استيعاب نوعي لعلم البلاغة و هضم عميق لعلم الكلام .. و ذلك يعود إلى أن (.. المجاز يصدر عن إدراك الإنسان لحدوده الأرضية , و لكنه هو أيضا وسيلتنا لتجاوز المسافة التي تفصل بين الدال و المدلول بشكل جزئي (سواء أكان الإله : المدلول المتجاوز , أم الإنسان : المدلول المركب الذي يحوي داخله قبسا إلهيا , و الذي يتجاوز واحدية الطبيعة / المادة) , فالمجاز و التجاوز صنوان . و المجاز يؤكد الصلة بين الأشياء , و لكنه في تأكيده الصلة يؤكد المسافة بينهما , فهو يؤكد وجود عنصرين (لاعنصر واحد) مستقلين متشابهين غير ملتحمين عضويا , لا يفقد الواحد نفسه في الآخر ليظهر كلٌّ عضويٌّ جديد . و من ثمَّ فالمجاز يصدر عن الإيمان بثنائية العالم , فهو صدى للثنائية التكاملية الأولى : ثنائية الخالق و المخلوق . فالمخلوق متميّز عن الخالق , و لكن , لأنه يؤمن بالإله الواحد المتجاوز , فإنه لا يفقد الأمل في التواصل معه عز و جل . و هو – أي المجاز – أيضا تعبير عن إمكانية التواصل بين البشر, بكل ما يحملون من أعباء و أفراح و

---

[28] - المرجع نفسه , ص : 159 .

أحزان . فالمجـــــاز يضـيّق المسـافة الإدراكية التي تفصـل بين الخالق و المخلوق , كما يضـيِّق المسـافة الإدراكية و العاطفية التي تفصل بين الإنسان و أخيه الإنسان ...) [29] ...

ب – <u>الاستخدام الحضاري</u> :

تملك المقاربة التي تقدم ذكر تفاصيل مكوناتها الأساسية سابقا قدرة متميزة على التعاطي مع الإشكالات الحضارية و أن اختلفت من حيث جذورها و تكوينها و غاياتها .. و أجناسها .. و مثال ذلك ما يجده الكثير من الدارسـين و المفكرين المعاصـرين من غموض فيما يخص محاولة تحقيق الفهم الموضـوعي لطبيعة التعالق الغربي المعاصر بالكيان اليهودي بعيدا عن التفسيرات السياسوية .. السطحية .. هذه الوضعية الإشكالية التي دامت سـنوات عديدة اسـتطاع عبد الوهاب المسـيري أن يقف على بعض تجلياتها علميا في أعمال علمية رصـينة كثيرة من إشـاراتها ما يلي : (..اسـتخدام الكاتب البريطاني ***توماس أديسـون*** في القرن الثامن عشـر (في مجلة سـيكتيتور) صـورة مجازية ليصـف علاقة أعضـاء الجماعات اليهودية بالحضارة الغربية , فقال إنهم أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالهـــا الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة , و التي تتـــــرابط من خلالها الإنسانية . ثم تتعمق الصورة المجازية و تزداد تبلورا حين يبين ***أدسون*** أنهم أصبحوا : مثل الأوتاد و المسامير في بناء شامخ . و هذه الصورة المجازية تبين : أن الحضارة الغربية تـرى أن اليهود بغير قيمة في حد ذاتهم , غير أن أهميتهم مطلقة لاحتفـاظ هيكل البناء بتماسكـه , أي أنهم وسيلة و ليسوا غاية ...) [30] ...

و يمكن الاطلاع على النماذج المتبقية و التي منها المثال السياسي و المثال الثقافي و المثال السيكولوجي .. و غيرها من خلال التمتع بقراءة مؤلفات عبد الوهاب المسيري و على رأسها مصنفـه المتميز : اللغة و الجـاز بين التوحيد و وحدة الوجود ...

<u>الخاتمة</u> :

قارب هذا الموضوع إشكالية النقلة النوعية لوظيفة البلاغة التي أحدثهـــا التخاصب التميز بين علم البلاغة و علم الكلام في لحظـــة تاريخيـــة من الصعب تحديدها بدقة من تاريخ التطور العلمي و الثقافي في الحضـــارة العربية , إذ كانت البلاغة العربية قبل هذه اللحظة الفارقة تركز كل طاقاتها حول معرفة الطرائق و الكيفيات التعبيرية الجمالية التي تـــرقى بالاستعمال اللغوي من حيث مبناه و معناه و

---

[29] - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , ص : 159 – 160 .

[30] - المرجع نفسه , ص : 19 .

إجراءاتـــــه ..إلى مستوى من الذوقية الفنية التعبيرية الهادفة الهادفـــــة عموما تحقيق قدرواف من التأثيـرية و الإقنـاعية .. و في الوقت ذاتـه تصنع لدى المتعلم كفاءة نوعية تجعلـه يتلقى القرآن الكريم و الحديث النبوي تلقيا سليما وفقا لسنن العرب و منحاها اللغوي ... لكن عندما امتـــز علم البلاغـــة بعلم الكلام بناء على ما فرضتـه مقتضيات الحياة المتغيرة جراء التوسع الحضاري الاسلامي الذي شهد دخول موجات بشــرية مختلفة المشــارب الثقافية و متباينة العادات الاجتماعية و متناقضــة في بعض الأحايين في منطقها التفكيري .. بل إن أذواقـها التعبيرية لم تكن ببعيدة عن هذه الخلطـة الجديدة التي حملت بقضها و قضيضها تحديات معرفية و اشكالات ثقافية و مشكلات حضارية جديدة .. هي كلها في حاجة إلى الاستيعــاد و المعالجــة و التجاوز ... و في سياق ذلك صــارت البلاغة العربية عامة و صورها البيانية و استعمالاتها المجازية بفضل التعالق الحادث بينها و بين علم الكلام ... صارت متجاوزة للمجال التعبيري الجمالي اهتما و التوظيف الفني اســتعمالا ... لتتحول إمكانات علم البلاغة العربية نفســها إلى أدوات استراتيجيـة مهمة في مواجهـة تحديات الثقافات الوافدة و تفكيك مشكلاتها الثقافية الضاغطة و حلحلت اشكالاتـــها الذوقية و الجمالية التعبيرية التي تُطرح في سياقات مختلفة .. بعضها مبني على الجهل و بعضها يحكمه التجاهل و بعضها الآخر تؤسسـه المغالبة و العصبية و روح الانتقام ...

لقد بات علم الكلام من خلال ذاك التحول النوعي يســتعمل وســائل البلاغة العربية نماذج تحليلية و تفسيرية أدوات يوســع بها مجال النظــر و مساحة الرؤيــة العلمية .. حيث أصبح يقارب من خلالها النصوص الأدبية و النصوص غير الأدبية السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية ...إلخ .. بل امتلك من القدرات التحليلية التفسيرية ما يسمح لـــــه بدراسة النصوص غير اللغوية و تجلياتها السيميائية ...كما أن اهتمامـــــه لم يصبح محصورا في تتبع مبررات جماليات التعبير النصي المقدس و غير المقدس و إنمـــا افرغ طاقاتـــه في البحث عن النماذج المعرفية الكامنة الكلية و النهائية الثاوية في أعماق النصوص , و إن اختلفت مستوياتها التعبيرية و الجمالية ..,

لقد اســتطاع التزاوج العلمي بين علم الكلام و علم البلاغة المشــار إليه ســالفا من إيجاد نوعية قرائية ذات فعالية عالية القادرة على اســتيعاب الجوانب الجمالية و الفنية في النص و اســتخلاص النماذج المعرفية الكامنة القابعة في أعماق النص و تشــاعبه .. و بذلك يكون هذا النماذج قد انتقل بمســتوى التحليل العلمي للنصــوص من مســتوياته المعروفة : الصــوتية و الصــرفية و المعجمية و التركيبية و الدلالية .. إلى مستوى جديد في وقتـــه و هو مستوى النموذج المعرفي و أعني مستوى النموذج الكامن الكلي النهائي في الظاهرة النصية ...

و قد أجاد تطبيق هذا النموذج القرائي الجديد الذي يقوم على اسـتعمال الآليات البلاغية في تفكيك و تحليل و تفسير الظاهرة اللغوية و غير اللغوية و الوقوف على أنظمتها المعرفية الكلية و النهائية (العميقة) المتحكمة في صـيرورة الإنتاج و التلقي الثقافي بمفهومه الواسـع .. لأن البلاغة العربية لوحدها قد أنتجت نوعا محددا من الإبداعية و القرائية المحصـورة في نطاق الأبعاد الجمالية النصـية و الفنية التعبيرية , و يدور اهتمامها كذلك على كيفية تحويل المنتج اللغوي من مسـتواه العادي إلى المسـتوى التأثيري أو كيفية تقييمه و تثمينـــه و الحكم على نقائصه و تعليليه ... كما أن علم الكلام بمفرده قد صب كل طاقاتـه في استثمار إمكانات العقل المتنوعة في مواجهة أنواع التحديات المعرفية و علاجها , إن أمكن ذلك , ..

إن عملية الاندماج التي حصـلت بين العقل العربي و ذوقه الجمالي و عودة الحال الطبيعة بينهما , بعد أن حصـل انفصـال كلي .. لأسـباب لا يسـمح هذا المقام بذكرها ... أنتج صـراعات و نعرات و ثغرات و عيوب كثيرة في مسيرة التطور العلمي في الثقافة العربية .. إلا أن العودة الجديدة المتصالحة بين العقل و الذوق الجمالي من حيث التعالق و من حيث التراتب كذلك .. سـمح للطاقات الكامنة في العلمين علم الكلام و علم البلاغة أن تعطي بعض أسـرارها و تخرج بذلك إلى مسـاحات معرفية جديدة منها توظيف الصـورة المجازية / البلاغة وسـيلة هادية و أكثر تفسـيرية لتشـخيص النماذج الكامنة و المرجعيات المتحكمة الثاوية في أعمال الظاهرة النصية على اختلاف تجلياتها ....

المصادر و المراجع :

1 - حسـين خمري : نظرية النص – من بنية المعنى إلى سـيميائية الدال , منشـورات الاختلاف , ط1 : 2007 م

2 - صلاح فضل : بلاغة الخطاب و علم النص , عالم المعرفة , العدد 164 , يناير 1978 م .

3 - عبد الجبار الرفاعي : مقدمة في علم الكلام الجديد , مؤسسة هنداوي , 2024 م .

4 - عبد القادر الفاسي الفهري : المعجم العربي بين التصوري و الوظيفي , في المعجمية العربية المعاصرة .دار الغرب الإسلامي , ج2 ,ط1 .

5 - عبد الوهاب المسيري : **اللغة و المجاز** بين التوحيد و وحدة الوجود , دار الشروق , ط1 : 2002 م .

6 - محمد محمد أبو موسـى : البلاغة القرآنية في تفسـير الزمخشـري – و أثرها في الدراسـات البلاغية , مكتبة وهبة , ط:02 , 1988 م .

7 - محمد النويري : المصطلح اللساني بين واقع العلم و هواجس توحيد المصطلح , مجلة علامات ج 08 – م 02 محرم 1414 هـ - جوان 1993 م.